حول «الوضوح والغموض»

عقد الاستاذ عباس فضلي فصلا طويلا تحت هذا العنوان ، تكلم فيه عن غموض الشعر وأسبابه وقيمته ، وانتهى في حزم الى أننا يجب أن نرفض كل شعر غامض لأن الغموض والفن لا يجتمعان في صعيد واحد ، ويظهر أن الاستاذ إنما يريد هذا النوع من الغموض ، الذي يتجلل من حنادس الليل بحجب واستار ، فاذا أعملنا فيه عقولنا وأجهدناها ما وسعنا الأعمال والاجهاد ، لم نتبين شيئا غير الظلام الموحش ، والحلوكة الدامسة ، وليس هذا هو الغموض الفني أو الشعري الذي يجعله الدكتور طه حسين سببا من أسباب جمال الشعر ، وإنما يريد الدكتور — فيما أفهم — غموضا آخر جميلا ، لا تنفرمنه النفس ولا تستوحش ، وانما تقبل عليه ، وتهش له ، وتجد فيه لذة ومتاعا كبيراً ، وهو أشبه ما يكون بالظلال لا تحجب النور ولكن ترسله بقدر ، ومهما كثر هذا الغموض وفاض فلن يحول بيننا وبين التأثر الجميل بالقطعة الشعرية وما يغمرها من سحر وابداع ، بل ربما كان هو مثار أعجابنا وتقديرنا ، ومبعث سرورنا وغبطتنا ، هو غموض حقا ، ولكنه غموض ذو بهجة ، تقر به النفس ، ويسر به الذهن ، وما أشبهه بهذه السدول الرقيقة التي يرخيها الضباب على الطبيعة ، فلا يزيدها إلا سحراً وجمالا ، ولا يزيدنا إلا اعجابا واستحسانا .

وهذا الغموض الشعري له أسباب مختلفة ، ولعل كثيراً منها يرجع الى قصر اللغة وقصورها في الافصاح عن عواطف الشعراء النفسية ، وميولهم ، ورغباتهم ، فكثيرا ما تعجز اللغة عن اداء المعاني التي تضطرب في صدورهم ، وحتى هذه الألفاظ التي ظفرت بالأفصاح عن بعض هذه المعاني ، لم توفق في القيام بمهمتها الشاقة توفيقا كبيرا ، وذلك لأن المعاني تفصح عنها لاتخضع لشيء خاص محدود يعرفه الجميع ، فالمعاني ليست مادية محسوسة ، وإنما الالفاظ هي المحدودة بحروف معدودة وفراغ مخصوص ، ومما يزيد الموضوع خطرا ، ان كل كلمة من هذه الكلمات التي يستعملها الشعراء تعبر عند كل واحد منهم عن حالة مخصوصة لايشركه معه فيها أحد مشاركة تامة ، وما هذه الكلمات الا حيل وتدابير يستعملونها للافصاح عن هذه المعاني التي تزفر بها نفوسهم ، ولاشك في ان بها كثير من التسامح ، كما ان بها كثيرا من الابهام والغموض ، ويخطيء كثيرا من النقاد فيظنون أن لا خلاف بين الحياتين العقلية والنفسية ، الواقع ان هناك اختلافا كثيرا ، فالحياة العقلية قد درست واستطاع العلماء ان يعرفوا مقدماتها وطرق استدلالها ، فكان على المنطق ، أما الحياة النفسية فلا تزال على أشد ماتكون أبهاما وغموضا ، ولهذا كان تحليل الحادثة الشعرية الى عناصرها ، من احساس ، وشعور ، وخيال ، وعاطفة منشأ غموض كثير ينتشر بين أجزاء القصيدة الواحدة ، ومن هنا كان الخلاف كثيرا مايقوم بين النقاد في فهم القطع الشعرية المختلفة ، لانهم لايعتمدون على مبدأ معروف للمناقشة والمقارنة ، فهم لايستيرون بتحليل واضح سابق مشابه للحوادث الشعرية التي يتناقشون فيها ، وعلماء النفس أنفسهم يقولون أن الشعور مصدر الابهام ، فما بالنا بالحياة النفسية كلها وماتنطوي عليه من رغبات وعواطف ، وميول وشهوات ، لاسبيل الى حدها أو حصرها ، وإذا كانت هذه هي الحياة النفسية وهي على أشد ماتكون التواء وتعقدا أفلا نسمح لما يخرج منها ان يحمل شيئا من آثار أبهامها مادام جميلا نشغف به ، ونعجب بحسنه وجماله

والواقع أن الأمر لايحتاج منا إلى أصدار حكم لفارق الشعر الغموض ويقاطعه : بل إن ذلك يرجع كما رأينا الى الحياة النفسية ذاتها ، وسواء أرضينا أم غضبنا فسيستمر الغموض مسيطرا على الشعر حتى تنضج الحياة النفسية ، ولاسبيل إلى هذا الايضاح الآن وتاريخ الشعر يؤيد أن هذا الغموض لازم الشعر منذ نشأته الأولى ، فقد كان الانسان — قبل أن يتحول محيط عواطفه إلى جليد تسطع عليه أشعة الأفكار والألفاظ — يعبر عن هذه الحياة الصاخبة في نفسه بأصوات مبهمة ، ولما أخذت الأفكار والألفاظ تقوم بتجسيم هذا التعبير رأى الشاعر الأول أنها عاجزة عن القيام بمهمتها قياما تاما فأضاف اليها الوزن الشعري عله يكمل بنغماته المعنى الذي يريد الأفصاح عنه ، وللموسيقى الشعرية شأن كبير في الشعر ، وذلك

جعفر بن يحيى قال له جعفر : بم يستحل أمير المؤمنين دمي ؟ فقال له مسرور ، قال امير المؤمنين : بقتلك ابن عمه عبدالله بن الحسن ابن علي بغير اذنه . فهذا دليل أصرح ما يكون على الندم والتوبة وبه تسقط آراء كثير من المؤرخين في نكبة البرامكة ، وحسبنا بهذا أننا كشفنا غمة تاريخية بالأدلة الناطقة والبراهين الصادقة ، فاستقام بها مجرى من مجارى التاريخ كان متعرجاً ملتويا لاتطرد فيه الحوادث ولا تسترسل فيه الآراء .

مصطفى جواد

لأنها إذا ارتقت إلى أسمى درجاتها، استطاعت أن تؤثر فى نفوس السامعين بدون حاجة الى فهم الافكار التى تحملها ، فلا يكادون يسمعونها حتى يجدوا لذة جميلة لايستطيعون أن يرجعوها إلى مصدر سوى هذه النغمات السحرية التى يبثها الشاعر فى آثاره الشعرية

وغموض الشعر لايأتى دائما من الشاعر وشعره بل كثيرا ما يأتى من القارىء وقراءته ، فالناس يختلفون فى فهم القصيدة بل فى فهم البيت الواحد ، ولا سبيل إلى كبح جماح هذا الخلاف ، لأنه يرجع إلى حوادث سيكولوجية ، فإن كل صورة فى الشعر أو فكرة فيه حين تنقلها من عالمها الخارجى الى عالمنا النفسى الداخلى تصادف مناطق من الشعور تختلف باختلاف القراء ، ولهذا ينتهى كل قارىء غالبا إلى صورة أو فكرة لايشترك معه فيها غيره ، ولكى يكون حكم القارىء للشعر صحيحا ، يجب أن يكون ماهرا فى اخراج نفسه من كل مايؤثر فيه ، بارعا ، فى فهم الحالات العقلية التى تلائم الموضوع الشعرى الذى يقرأه ، كما يجب أن يتخلى عن كل النزعات فلا يؤثر شيئا لقدمه ، وبقائه ، ولا يحتقر شيئا لجدته وحداثته

والأبهام كثيرا ما يأتى مما ترمز اليه الفكرة الشعرية ، لان الفكرة الفنية لا تلهم القارىء دائما برموز محدودة ، فمثلا أذا صور أنسان فتاة رامزا بها الى الأنوثة ولم يعرف الناس ماذا أراد ، رأيتهم يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا ، هذا يقول إنه يرمز إلى الجمال ، وذاك يقول إنه يرمز الى الدلال ، ويقول ثالث بل إلى الجلال ، وقليلون إلى الرمز الحقيقى الذى أراده الرسام لصورته ، وكذلك المناظر الطبيعية فهى لاتملى علينا فكرة محدودة ، وهذا هو الذى يجعلنا نقول إن الانسان يرى من الجمال فى المرة الثانية مالم يره فى المرة الأولى ، أى أنها توحى الينا بألوان مختلفة من الأفكار العذبة والصور الساحرة ، كلما نظرنا اليها وأمعنا فيها ، وليس الأمر كما يظن الأستاذ فضلى من أنه يرجع إلى أننا لانفهم الجمال مرة واحدة ، إذ الجمال ليس مسألة حسابية يعوزها الفهم ، ولا تمرينا هندسيا ينقصه البرهان ، وأنما هو معين لأفكار كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ولن ينضب من هذه الأفكار الساحرة إلا إذا فنيت لا ـ قدر الله ـ حياتنا النفسية ، وبقيين جمال أطلاق الشعرية من قيود التحديد فى كثير من الآثار الشعرية ، كما نجد فى رواية هملت ، فان الناس يختلفون اختلافا كثيرا فى شخصية هملت نفسه ، ولا يكادون ينتهون الى رأى واحد معين ، ولكنهم مع ذلك يتفقون على أن هذه الرواية من أعظم اعمال شكسبير إن لم تكن أعظمها ، وربما كان يستحسن ـ لهذا السبب ـ أن يعتمد الشعر على الايجاز حتى يصبغ أفكاره بشىء من الابهام والغموض يسمح لنا أن نستوحى منه أفكارا مختلفة جميلة ، ولا يضع الايجاز من قيمة الشعر بل هو على العكس يرفع منه ويسمو به إلى الافق الأعلى ، وانما الذى يضع منه حقا هو الاطناب الذى لا يزال بالفكرة حتى يظهرها عارية أمامنا ، فسرعان ما نبتذلها ونحتقرها

وإذن فالغموض الشعرى يجب أن نقدره التقدير اللائق به ، فلا نغالى فى ازدرائه وتحقيره ، يجب أن نعرف أنه من أهم أسباب جمال الشعر وحسنه ، ومن يدرى ؟ ربما كان من أهم أسباب خلود الشعر وبقائه . فان الآثار الشعرية تشرق عليها الحياة فى العصور المختلفة ، بينما تبلى القطعة العلمية بمرور الزمن ، وتنطمس معالمها ، وأكبر ظنى أن هذا يرجع إلى وضوح القطع العلمية ، فالشىء الذى يتضح أمام الانسان لا يفكر فى ترديده وتكرار النظر فيه . وأى حاجة تستدعى ذلك ؟ . أما الآثار الشعرية فانها لا تتضح أمام الانسان جملة واحدة ، ولهذا نحن نقرأها مرة ومرتين وثلاثا ، وقد نحفظها ونكررها ولا نحس بضجر ولا بملل ، بل نحن نجد فى ذلك لذة مغرية ومتعة طيبة

والغريب كل الغرابة أن الاستاذ فضلى يدعى ، أن كل بديع فى هذا الكون من منظر إلى صوت إلى شعر يلازمه الوضوح كيفما تكيف وتطور وتصور ، ثم ينتهى إلى أن ، الوضوح هو جوهر الجمال ، وما أعرف أن أحداً يستطيع أن يوافق الأستاذ على دعواه ، بل إن نقاد الفنون المختلفة يكادون يجمعون على أن الوضوح إذا عرض للآثار الفنية أفقدها كثيراً من روعتها وجمالها ، والدلالة على ذلك كثيرة فنحن نعجب بنور القمر أكثر من أعجابنا بنور الشمس ، وما هذا إلا لأن نوره أكثر ابهاما وأوفر غموضا ، وكذلك نحن نعجب بالمناظر الطبيعية تتراءى لنا فى ثياب أضواء الفجر الغامضة ، أكثر من اعجابنا بها وهى متبرجة فى أضواء الهاجرة ، ونحن أيضا نطلب فى الموسيقى انكشافا ولا وضوحا فشاعرنا تهيج بالسماع فقط ، وليس من الضرورى أن نفهمها ، بل إن كثيرين يتأذون من فهمها ، ويقلقون من وضوحها ، والشعر لايخرج عن بقية الفنون الجميلة ، فهو كلما كان أكثر وضوحا ، كان أقل قيمة وأدنى درجة لأنه لاينطق حينئذ الا بظاهر من القول وضحل من التفكير ، نعم هناك مسألة مهمة يجب أن ياخذ الأدباء لأنفسهم الحذر من شرها ، وذلك ان كثيرا من شعرائنا أفسدوا أذواقنا فى حكمنا على الشعر فجعلونا نظن أن بين الجمال والوضوح